وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
الجامعة المستنصرية
كلية التربية / قسم التاريخ

جذور الفكر الديمقراطي الأوروبي

إعداد

د. حسن زغير حزيم

مدرس في قسم التاريخ / كلية التربية

الجامعة المستنصرية

آذار ٢٠١١

مـقـدمـة :

إن بحثاً في الديمقراطية لابد إن يبدأ بتعريف ما هي الديمقراطية ، فتلك نقطة الانطلاق يجب الوقوف عندها .

الديمقراطية مذهب فلسفي واجتماعي ، كما أنها نظام من أنظمة الحكم وتعني حرفياً – سلطة الشعب – تكون السلطة فيه للشعب ، وهي كلمة يونانية مركبة تركيباً مزجياً من لفظين هما (ديموس Demos) وتعني الشعب ، (وكراتوس Kratos) وتعني الحكم ومعناه الحرفي في السياسة هو حكم الشعب .

ليس باليسير التعريف بالديمقراطية نظراً لشمولها مختلف أوجه الحياة ولتأثرها بالمعطيات التاريخية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية وان التعريف الأكثر شيوعاً هو حكم الشعب ، وبالشعب وللشعب ، فيما يعرفها توينبي على أنها " السيطرة الفعالة على الشؤون الإنسانية من جانب الجماهير " . فيما تعرفها دائرة المعارف الأمريكية " بأنها الطرق المختلفة التي يشترك بواسطتها الشعب في الحكم" . وتحدد لها عدة أنواع ومنها الديمقراطية المباشرة والديمقراطية غير المباشرة والديمقراطية النيابية .... الخ[١] .

ويوصف المؤرخ بوردو الباحث في الديمقراطية بأنه مؤرخاً لفهم فكرة الديمقراطية. وعالم اجتماع لدراسة جذورها في الشعوب. وعالم الاقتصاد ، لأدراك العوامل المادية المؤثرة في تطورها. وعالم النفس، لمعرفة مصدر الطاقة التي تغذيها. ومنظراً سياسياً لتحليل اثر الأنظمة والعقائد السياسية على مفهوم الديمقراطية، وأخيراً رجل قانون لتعريف المؤسسات التشريعية والتنفيذية التي تجسد عملياً الديمقراطية[٢] .

وهناك من يفرق بين الديمقراطية كمذهب والديمقراطية كنظام للحكم فالديمقراطية كفكر ومذهب سياسي تعني ذلك المذهب الذي يرجع أصل السلطة السياسية أو مصدرها إلى الإرادة العامة للأمة، أي أن هذه السلطة لا تكون شرعية ألا أذا كانت وليدة إرادة الأمة[٣]. بمعنى أن الشرعية الديمقراطية هي الشرعية الوحيدة التي لا بديل عنها[٤] .

أما الديمقراطية كنظام للحكم فهي ذلك النظام الذي يستلهم روح المذهب الديمقراطي ، أي أنه ذلك النظام الذي ينشأ وليداً لإرادة الأمة ويقرر أصحابه أنه نظام شرعي ، لأنه يقوم على أساس تلك الإرادة (إرادة الأمة) وكما يكفل هذا النظام الحريات للأفراد[٥] .

والديمقراطية هي مذهب فلسفي نادى به الفلاسفة منذ عهد سقراط وأفلاطون ، وأرسطو وهي نظام للحكم بذلت المحاولات لتطبيقه قديماً في أثينا وروما . لقد مرت على الديمقراطية ، مذهباً ونظاماً ، تيارات كثيرة ، وتقلبات شتى أدت إلى رواجها وازدهارها في بعض الأحيان تقلصها وانحسار مدها في بعضها الأخر . ويمكننا إن نلخص جذور تطور الفكر الديمقراطية الأوروبي بما يلي :

أولاً : الديمقراطية اليونانية القديمة :

تركزت بخاصيتين أساسيتين أولاهما أنها كانت ديمقراطية مباشرة ، إي إن الشعب كان يشترك اشتراكاً مباشراً في حكم نفسه عن طريق الجمعية Assembly وكان حق الاشتراك في الجمعية متاح لكل المواطنين (عدى العبيد والأجانب) . ثانيهما هي إن هذه الديمقراطية لم تعرف الحرية بمعناها الحديث . فلم تكفل للفرد حرية العبادة وإنما عليه إن يدين بدين الدولة لذلك تعتبر هذه الصورة من صور الديمقراطية التي برزت في الدولة اليونانية القديمة من أكثر صور الديمقراطية تطرفاً .

ثانياً : الديمقراطية في الإمبراطورية الرومانية :

عندما أسس الرومان أول جمهورية لهم في عام ٥٠٩ ق . م . أشترك العبيد المحررين بالحكم . وانتشرت الحضارة اليونانية بين الرومان ، أثر أستبدل احد ملوك ، إذ تغير نظام الحكم إلى ملكي ، في العهد الملكي الأول مجلسي الشيوخ والأشراف بمجلس ديمقراطي واحد كان للعامة فيه حق الأشراف على سياسة الدولة والاستفادة من ممتلكاتها المشاعة .

ثالثاً : انتكاس الديمقراطية في العصر الوسيط :

إذ لم تكن البيئة صالحة في هذا العصر لتطبيق مبادئ الديمقراطية . وسيطرت الكنيسة المسيحية على رعاياها مدعية أحقيتها لتولي السلطتين الدينية والدنيوية . وحاولت الكنيسة تنصير فكرة إلوهية الإمبراطور والاستعاضة عنها بفكرة الحق الإلهي بالحكم . وأخذت سلطة البابا بالتزايد ، ورغب بضرورة عدم تقييد الحق الإلهي بمبدأ العدالة الجماعية التي نص عليها القانون الروماني . ووقف البابوات في وجه التطور الديمقراطي ، عندما دمجا الفردية التي انطوت عليها المسيحية والديمقراطية المبتورة التي نص عليها القانون الروماني في الفردية البربرية ثم دخلت في نزاع عنيف معهما . بالإضافة إلى هذا النزاع كان هنالك صراع بين الملوك والنبلاء الإقطاعيين .

ومن أجل ضبط معالم اللوحة التاريخية قسم البحث إلى ثلاث مباحث تناولتُ في المبحث الأول جذور الفكر الديمقراطي في الحضارة اليونانية . ودرستُ في المبحث الثاني تطور الفكر الديمقراطي في الحضارة الرومانية . وتطرقتُ في المبحث الثالث انتكاس الفكر الديمقراطية في العصر الوسيط .

المبحث الأول : جذور الفكر الديمقراطي في الحضارة اليونانية :

الديمقراطية هي كلمة يونانية مركبة من لفظين هما ديموس demos وتعني الشعب ، وكرتوس kratos وتعني الحكم ومعناه الحرفي حكم الشعب[٦].

تعد الأمة اليونانية رائدة الفكر الديمقراطي ، إذ منحته الحرية الأولى لان يتحول إلى تطبيق عملي بالرغم من نواقصها العديدة . وكانت لها بعض المزايا التي ظهرت أثارها في الحياة اليونانية القديمة. وكانت حياة الفرد بموجبه مصونة وشعور الفرد بواجباته الاجتماعية قوياً والاعتزاز بما حقق من الآثار المدنية والاجتماعية عظيماً . وكثيراً ما تتم العودة بالديمقراطية ، بمعناها هذا إلى العهد اليوناني ، على

اعتبار أنها مثلت صيغة للحكم كانت قد عرفتها (أثينا) بوجه خاص . وعليه فاليونانيون أول من استنبطوا نواة الديمقراطية[٧] .

لذا تعود جذور الفكرة الديمقراطية إلى الفلاسفة والمشرعون اليونانيين . ويجب إعطاء لمحة موجزة عن ما أتت به الحضارة اليونانية في الفكر السياسي ورواد ذلك الفكر وما قدموه من أفكار سياسية . إذ وجدت الفكرة الديمقراطية الكثير ممن يدافعون عنها ويتحمسون لها من قبل مفكريها . ويمكن تقسيم مراحل تطور الديمقراطية في الحضارة اليونانية على النحو التالي :

أولاً : أهم الآراء الديمقراطية التي نادى الفلاسفة والمدارس الفكرية اليونانية :

أ - دستور صولون Solon (٥٩٤ – ٥٤٦ ق . م) :

جاءت الانعطافة الأولى في تطور الفكر الديمقراطي اليوناني عبر دستور صولون[٨] ، الذي انتخبه الأثينيون حاكماً في عام ٥٩٤ ق . م لهم . ويعد هذا الدستور أقدم دستور أوروبي مرتكز على المبادئ الديمقراطية الأساسية ، التي تعترف بحقوق الإفراد في انتخاب الحكام وإدارة شؤونهم العامة . ولعب هذا الدستور دوراً بارزاً ، عند وضعه حيز التطبيق ، في تطور الفكر الديمقراطي اليوناني. وعمل بدوره على تحقيق نوع من الاستقرار والتوازن الاجتماعي في مجتمع أثينا القديم . وأهم ما جاء في دستور صولون من مبادئ ديمقراطية هو أعطاءه للشعب الحق دون تمييز بين غني وفقير في المشاركة بانتخاب قضاته كما وسع من نطاق الديمقراطية الأثينية ، بمنح جميع الأجانب المهرة في حرفة ما والمقيمين هم وأسرهم بصفه دائمة في أثينا حق المواطنة [٩] .

وأوجد هذا الدستور مؤسسات ديمقراطية ، فكانت الهيئة التنفيذية المنتخبة مؤلفة من ٩ أعضاء يسمى كل واحد منهم ارخون . ومجلس أشراف الناس او مجلس الشيوخ الذي كان يناقش جميع القضايا والمسائل العامة . وهناك مجلس ثاني يضم جميع المواطنين ويسمى جمعية الشعب العامة (ايكليازيا) . وكانت

العضوية في هذه الجمعية عامة لكل حر اثيني يمتلك أرضاً . وكانت القوانين التي تقرها الهيئة التنفيذية ومجلس الشيوخ يجب أن توافق عليها الجمعية العامة حتى تصبح سارية المفعول . ولكن هذه الجمعية لم تكن لها مكانة معتبرة ولا منظمة ولم يكن لها الحق في تقديم مشروعات القوانين . وكان مجلس أشراف الناس يجتمع عند الصخرة المسماة " اريوباغوس " لبحث في من يكون ارخوناً في السنة المقبلة . كما يبحث جميع المسائل التي تطرح إمام جمعية الشعب العامة[١٠].

ثم قام صولون بتأسيس مجلس أخر هو مجلس الشعب يتألف من مئة عضو يختارون من جميع القبائل الأربع التي تعيش في أثينا وفي جميع المدن اليونانية . وكان يحق للفلاحين الذين يمتلكون نصف مؤهلات الفارس الانتساب إلى هذا المجلس . ويجري الانتخاب بالاقتراع . وكانت صلاحيات المجلس النظر في جميع القضايا التي تعرض على جمعية الشعب العامة . ويعتبر هذا المجلس بمثابة محكمة عليا مكونة من ممثلي الشعب " محاكم شعبية " . وقد دعاه صولون بـ " حارس القوانين " وكان يستدعي للمحاكمة كل شخص لا يكون سلوكه الخاص والعام وفقاً للعادات المتبعة[١١] .

وأدى هذا التطور في مفهوم الديمقراطية إلى نتيجة ايجابية هامة ، جعل القوانين موضوعة من قبل كبار الشخصيات قابلة للتعديل والتغيير في كل وقت ، فزالت عنها مسحة القداسة ، بل أخذ المشرعون يضعون القوانين باسم الشعب باعتبارهم ممثلين له ومندوبين عنه . فظهرت الديمقراطية هنا بإجلاء مظاهرها، وبدت بطابعها الصحيح ومفهومها الواضح الصريح، إذ أن الشعب هو سيد نفسه وهو يسن الشرائع التي توافق وضعه ومصالحه. ووضع القوانين التي توفر مجالات العمل والسعادة لشعبه[١٢].

ب - أفلاطون (٤٢٧ – ٣٤٧ ق . م) :

ظهرت دعوات ديمقراطية جديدة على يد أفلاطون ، الذي ذهب في كتابه القوانين إلى وجوب إشراك جميع المواطنين في إدارة شؤون المدينة . وهو بهذا

يخالف ما كان يدعوا إليه في السابق إلى قصر المشاركة على العلماء والفلاسفة[١٣] .

وتتمثل دعوته هذه بوضع على رأس الدولة المشرعون الذين يكتسبون الحكمة من خلال البصر بالأمور ، والإحساس بالواقع العملي ، إما المعرفة الفلسفية فهم خلو منها ، وهؤلاء يشكلون مجالس تشرف على تنفيذ القوانين[١٤] .

ت - السفسطائيون[١٥] :

وهم من أوائل من توجهوا بفكرهم إلى الإنسان دون تميز بين إنسان وأخر على أساس اللغة أو الجنس أو الدين ، ناشدين بذلك أقامة ثقافة إنسانية وعقلية جديدة تجعل الإنسان مقياساً لجميع الأشياء وذلك من خلال جعل الإحساس الفردي هو الحكم في جميع الشؤون كما قال بروتاجوراس[١٦]. وأن السفسطائيين يعولون في فلسفتهم السياسية على أرادة الإنسان ، التي تسعى لتحقيق ذاته متخطياً بذلك كل القوانين وقيم المجتمع السائدة[١٧] .

وركز السفسطائيون اهتمامهم على الأفراد لا على الشعب . وأكدوا على أهمية الإنسان ، الذي هو إحدى الدعائم التي يبنى عليها الشعب . ولقد ذهب بعضهم بعيداً بالنسبة إلى الأحوال السائدة في ذلك الحين ، عندما أنكروا وجود اختلاف بين البشر" الأحرار والعبيد" . وهاجم يوريبيدس Euripedes الأنظمة السياسية التي تمنع المرأة من المشاركة في العمل السياسي والانتخابات . ودعا لايكوفرون Lycophron إلى عدم وجود أي اختلاف أو تمايز بين الناس فالجميع خلقهم الله سواسية منذ الولادة[١٨] . وكان السفسطائيون بحق رواد الفلاسفة اليونانيين المطالبين بالديمقراطية لتحقيق المساواة والعدالة الاجتماعية بين البشر .

ث - أرسطو (٣٨٤ – ٣٢٢ ق . م) :

يعد أرسطو من رواد الفكر الديمقراطي في العهد اليوناني ، إذ شرح في كتابه السياسة القواعد التي تقوم عليها الديمقراطية وحدد مفاهيمها ، وحدد أرسطو إشكال الحكم بثلاث أنواع ، الحكم الفردي وحكم الأقلية وحكم الأكثرية. فالأول هو حكم الملوك المستبدين والثاني حكم الأغنياء والارستقراطيين والثالث حكم الفقراء ويعتبر النوع الأخير هو الديمقراطي[١٩].

ويصف أرسطو الديمقراطية بقوله :" النظام الديمقراطي الصحيح تكون السلطة للقانون وحده ولا يظهر [الطغاة المستبدون] على المسرح السياسي إلا عندما يفقد القانون سلطته وهيبته وعندما يكون الحكم للشعب بالاسم فقط ، إما بالفعل يكون لشخص واحد أو لطبقة من الناس ، وهذا ما يجب الحذر منه وتلافي حدوثه" [٢٠] .

وحدد أرسطو واجبات الدولة بأنها يجب أن تهدف إلى الارتقاء بمواطنيها خلقياً ، وتحقيق أفضل حياة ممكنة لهم ، سيدها القانون وليس الاستبداد لأنه يعتبر الحكمة لشعب من الشعوب أسمى من حكمة فرد ولو كان من أعظم المشرعين ، وأن عناصر الحكم السليم ذلك الذي يستهدف الصالح العام للجميع وأن ترضى الرعية عنه . ويجب عدم التمييز بين الأشخاص حسب ثروته ، بل يجب التمييز على أساس العلم والحكمة[٢١]. بيد أن أرسطو منع العمال غير المواطنين من ممارسة الشؤون العامة . وكان يفضل حكم الملك الحكيم أو حكم الأقلية الارستقراطية فكرياً أو الديمقراطية المعتدلة التي تجمع بين الديمقراطية الأقلية والغنية في الدولة على أساس اجتماعي[٢٢] .

ج -المدرسة الكلبية[٢٣] :

تعتقد هذه المدرسة أن المساواة بين البشر من شأنها أن تؤدي إلى أضعاف رغبات الإنسان الجانحة للظلم والاستبداد ، وبذلك يمكن تحقيق المساواة بين الناس فلا أغنياء ولا فقراء ولا سادة ولا عبيد . تزعمة كراتيس الفلسفة الكلبية ، وهو أجنبي من غير رعايا الدولة ، لم تكن تعجبه الحياة الاجتماعية السائدة في

المجتمع اليوناني ، فتنازل عن ثروته لكي يعيش مع الشعب حياة الفقر . قامت فلسفته على الدعوة على إلغاء الفوارق الاجتماعية التي تسيطر على المجتمع اليوناني بالإقناع الذاتي وتحقيق المساواة [٢٤] .

د – المدرسة الابيقورية (٣٤٢ – ٢٧١ ق . م)[٢٥] :

نادت هذه المدرسة بالمساواة بين الناس وإشاعة روح الإخاء بينهم كما ذهب الابيقوريون إلى التركيز على المنفعة الخاصة باعتبارها الغرض الأسمى للحياة وخلصوا إلى أن دخول الشعب في اتفاق مع الحاكم ما هو ألا اتفاق منفعة يلتزمون بالطاعة للحاكم مقابل ما يوفره لهم من الظروف التي تتطلبها رفاهية الشعب[٢٦] .

ثانياً – التطبيقات العملية للأفكار الديمقراطية في الحضارة اليونانية :

أ – تطور الفكر الديمقراطي في دولة أثينا :

ظهر النظام الديمقراطي نتيجة تغيرات اقتصادية واجتماعية كبيرة ادت إلى حصر السلطة بأيدي جماعة من الاثرياء من الطبقة الوسطى يتبعها العمال وطبقة العبيد . وتعتبر مدينة أثينا رائدة الديمقراطية . ولتوضح الاسباب التي دفعت أثينا لتبني الحكم الديمقراطي هو ، أضافة إلى تأثرها بآراء فلاسفتها الديمقراطية ، أن بلاد اليونان جميعها واجهت في بداية عهد النبلاء (٧٥٠ – ٦٢٥ ق . م) ارتفاع الطلب على المواد الغذائية بسبب زيادة السكان . وكانت الشعوب اليونانية تؤمن تلك المواد بالاعتماد على المحاصيل الزراعية المنتجة في أراضيها . ولكن الأزمة اشتدت ولم يكفي تلك المحاصيل لسد حاجات السكان . فأقدمت أثينا على تطوير الصناعة والاهتمام بالتجارة الخارجية فغيرت نتيجة ذلك انظمتها السياسية بحث اشتركت في السلطة الطبقات الجديدة التي خلقتها تطور الصناعة وازدهار التجارة. يعتبر المفكرين اليونانيون في أثينا أول من عقدوا مقارنة بين صيغة الحكم القائمة في بلادهم وصيغة الحكم القائمة في البلاد الأخرى ، فقد وصف هيرودوتس في كتابه (التواريخ) البون الشاسع بين نظام الحكم اليوناني ونظام الحكم الفارسي ، إذ أكد إن

الأخير قائم على الطغيان ، بينما يستهدف نظام الحكم اليوناني سعادة عامة المواطنين الأحرار ثم وصف الديمقراطية بأنها (حكم الأغلبية) في مجتمع تسوده المساواة إمام القانون ويسال فيه من يتولى المناصب السياسية عما يفعله .

وضع الأثينيون ، بعد وفاة الطاغية باسيستراي (Pisistraie) في عام ٥٢٧ ق.م ، الذي حكم دولة أثينا بشكل فردي ، نظام حكم يسمح لهم بعزل الحاكم الذي لديه توجهات للانفراد في الحكم يطلق عليه اسم اوستراسزم Ostracsmle (إي نظام المحار) ، ويتم ذلك بعد اجتماع المواطنين لتقرير ما إذا كان يجب نفيه من أثينا وكان كل مواطن يعطي صوته بنعم أو لا ويكتبه على محارة[٢٧] .

واستمر هذا النظام حتى عام ٥١٠ ق.م ، حيث ثار الشعب في أثينا على أخر الملكهم وطردوه والغوا النظام الملكي وأعلنوا النظام الجمهوري ، يقوم على اختيار الشعب حاكمهم[٢٨] .

ازدهرت الديمقراطية في أثينا التي بلغت عصرها الذهبي في القرن الخامس قبل الميلاد ، عندما استطاع بركليس Pericles [٢٩] (٤٦٠ – ٤٣٠ ق . م) ، الذي وقف إلى جانب الطبقة العامة واستطاع بتأييدها ، ان يتزعم البلاد ويحكمها ثلاثين عاماً . وعد عصره من ازهى العصور اليونانية . وعرف بركليس الديمقراطية بقوله :" أنها نظام للحكم تتولاه الأكثرية لا الأقلية وهو يتيح للمواطنين جميعاً الاشتراك بالحكم عن طريق التصويت" [٣٠] . ووضع أول دستور ديمقراطي، أكد على العدالة واحترام القانون ووضح ذلك بقوله :" أننا لعصمنا من الخطأ احترامنا للسلطات والقوانين وإجلالنا الخالص لما تكفل منها بحماية المظلومين واحترامنا كذلك القوانين غير المكتوبة التي تستمد حمايتها من تألب شعور الجماعة على من ينتهكون حرمتها" . وكان الشعب في عهد بركليس هو مصدر السلطات وكان لكل فرد من أفراده حق الاشتراك في الشؤون العامة ومناقشة القوانين والتصويت عليها مباشرة في مجلس عام يسمى مجلس العوام وكان إلى جانب هذا المجلس مجلس أخر مكون من

٥٠٠ عضو مهمته إعداد اللوائح القانونية وعرضها على مجلس العوام الذي يقوم بمناقشتها ثم يقرر قبولها او رفضها [٣١] .

ووجدت الديمقراطية الأثينية في ذلك الدستور تعبيرها في تكوين التنظيمات السياسية . كانت من بينها الجمعية ، التي تضم جميع المواطنين من الذكور البالغين ومجلس الخمسمائة[٣٢] ، الذي كان خاضع لسيطرة الجمعية ، والمحاكم[٣٣].

لكن لم تسلم الديمقراطية التي ندين بها لأثينا من التمييز الإنساني إذ أطلق عليها الديمقراطية العرجاء كونها اقتصرت على الرجال دون النساء والمواطنين دون العبيد والأجانب ، الذين يشكلون الأغلبية ، وازداد الأمر سوءاً بأن جعلوها عن طريق القرعة لا عن طريق التصويت . وكان المواطنين في دولة أثينا يحضرون اجتماعات الجمعية التي اقتصرت العضوية فيها على جميع الذكور وهؤلاء الأعضاء يتم اختيارهم بالقرعة كأساس للمفاضلة بينهم[٣٤] . ويضمن النظام السياسي في أثينا السيادة الشعبية ، إذ منح لكل عضو في مناقشة الموضوعات المطروحة على الجميع ، وإبداء الرأي بشأنها إذ يتم التصويت برفع الأيدي[٣٥] .

تعد الديمقراطية في أثينا متطرفة في نزعتها الديمقراطية ، التي تمثلت في صورة الديمقراطية المباشرة ، بيد أنها لم تكفل مع ذلك حرية الإفراد ، كان الفرد في هذه الديمقراطية المباشرة ، التي تقوم من جمعية الشعب المكونة من جميع المواطنين الذين يتمتعون بالحقوق السياسية ، خاضعاً للدولة في كل شيء كل الخضوع وحصل المواطنين على الحرية السياسية دون غيرها من الحريات الأخرى . فلم تكن تعترف بالحرية الشخصية ولا بحرية المعتقدات الدينية ولا بحرية الملكية[٣٦] . إما المحاكم التي تعتبر الجهاز الحقيقي للرقابة الشعبية ، فقد كان يتم اختيار أعضائها ، البالغ عددهم ستة ألاف عضو من بين المواطنين البالغين الثلاثين عاماً من العمر ، وبطريقة تجمع بين الانتخاب والقرعة[٣٧] .

ويشترط فيمن يتولى المنصب القضائي أن تتوفر فيه الحكمة والسيرة الحسنة وهذه المحاكم بالإضافة إلى سلطتها في الفصل في المنازعات والرقابة على الأجهزة

الإدارية كانت لها صلاحيات اقرب إلى العمل التشريعي والتنفيذي منها إلى القضاء فهي بذلك قد تخطت صلاحياتها في الرقابة على دستورية القوانين[٣٨] .

ب – تطور الفكر الديمقراطي في إسبارطة :

كانت إسبارطة تحكم بنظام حكم الأقلية (الاولجركية Oligarchy[٣٩]) ويرجع سبب إتباع إسبارطة لهذا النظام لانها سدت حاجة سكانها للأرض بالاستيلاء على جيرانها من اليونانيين واستعبادهم وكلفها ذلك بقائها في حالة حرب مستمرة مع جيرانها . ولكي يحافظ زعماء إسبارطة على وضعهم هذا جعلوا من الحياة الإسبارطية حياة عسكرية . ومع ذلك ، تمتعت بنظام ديمقراطي إذ كانت الحكومة مقامة على شكل مجلس (سناتو) يضم ثمانية وعشرين عضواً ينتخبون من الرجال الكبار بالعمر ، ولكن هذا المجلس لا يشرع القوانين ويضعها موضع التنفيذ إلا بعد إن يوافق الشعب عليها في اجتماع عام يعقد شهرياً[٤٠].

وتوجد هيئة عليا ، إضافة إلى هذا المجلس ، للإشراف على إعمال المجلس والملوك أطلق عليها اسم (الايغورا) وازداد نفوذ هذه الهيئة التي تتكون من خمس قضاة بحيث اضطر الملوك للخضوع لها[٤١] .

ويلاحظ عند تطبيق الأفكار الديمقراطية في الحضارة اليونانية ، لأنها تكن كاملة لغياب المساواة الاجتماعية . وأن الحكام الفعليين كانوا من الصفوة المرموقة من المواطنين من أصحاب النفوذ والمال وهم وحدهم المسيطرون على الحكم . وهذا ما يصيب الديمقراطية اليونانية من حيث كونها ذات طابع ارستقراطي يجعل الحكم محصوراً بيد الأصلح والأفضل من القلة الحاكمة. ولم يستند الحكم اليوناني إلى مبادئ الديمقراطية في الفكر السياسي الحديث ، فضلاً عن ابتعادها عن جو المعارضة للاستبداد والدكتاتورية . لكنها على الرغم من ذلك تعد بداية طيبة لتطبيق المبادئ الديمقراطية في أوروبا .

وكان سبب انحلال النظام الديمقراطي اليوناني وانهياره هو تعرضها لاحتلال من قبل فيليب المكدوني . إذ أن اليونانيين لم يكونوا قد أدركوا أهمية جمع شمل

الأمة اليونانية بوحدة تجمع شتاتها ، وتوحيد جهودها الدفاعية لمقاومة هجمات الأجانب وإيقاف غزوهم ، وصد عدوانهم . لذا لم تصمد الأمة اليونانية إمام الروح العسكرية للمملكة المكدونية . ومنذ أن زالت التجربة الديمقراطية في أثينا أصيبت الحركة الديمقراطية بنكسة ، واستولى عليها ركود شامل ، دام حتى العصور الحديثة ، لولا بعض الحركات الضعيفة والهمسات الخافتة التي نفثتها بعض النظريات الفلسفية والعقائد الدينية آنذاك .

المبحث الثاني

تطور الفكر الديمقراطي في الحضارة الرومانية

ورثت الحضارة الرومانية ثقافة الحضارة اليونانية والمبادئ الديمقراطية التي عاشت في ربوعها . لكن الأولى أخفقت في الاستفادة منها ، نظراً لضيق خيالها ونزعتها في السيطرة والتوسع . لكنها استطاعت أن تتفوق على أثينا في فن العمارة والهندسة . وأظهرت روما مقدرة عجيبة في العمل السياسي ، الذي هو دليل على موهبة كبيرة[٤٢] .

ولطالما تجاهل المؤرخون الفضائل التي تحلت بها الجمهورية الرومانية حتى منتصف عهدها ، مدفوعين إلى ذلك بعامل النقمة على ما رافق هذه الفضائل من اضطهاد وفساد كان السبب في سقوطها . والحق ، فان الرومانيين ملكوا حساً أخلاقياً سيطر على سلوكهم كإفراد وكشعب وجعلهم يتعاملون كفاتحين كرماء وحكاماً عادلين ، لم يترددوا في أطلاق حرية العبادة والفكر وممارسة العادات السائدة في دولتهم[٤٣] .

١ – أراء بعض المفكرين الرومان :

يجب تسليط الضوء على طبيعة القواعد السياسية الرومانية من خلال دراسة آراء بعض المصلحين والمفكرين والحركات الفلسفية التي تزخر بها الحضارة الرومانية .

يذكر أن الفلسفة الرواقية واحدة من الحركات التي انتشرت في العهد الروماني، إذ ناصر الفلاسفة الرواقيون قضية الحرية . وأكدوا على حقوق الفرد ووقفوا إلى جانبه ضد السلطة . وتمسكوا بالقانون الطبيعي ، واعتبروه اسبق وأفضل هدية للمجتمع من العرف والعادات والقوانين الوضعية . وعمت الفلسفة الرواقية العهد الروماني بأكمله ، فظهرت آثارها على القوانين وعلى آراء بعض المفكرين أمثال شيشرن وسنيكا وغايوس الذين نادوا بالمساواة لجميع الناس ودعوا إلى شريعة القانون الطبيعي الذي يمنح حق التكافؤ لكافة المواطنين[٤٤] . وهنا نسلط الضوء على بعض المفكرين الرومان منهم :

أ - بوليب[٤٥] (٢٠٣ – ١٢٠ ق . م) :

رأى بوليب ، الذي أحزنه ما ألت إليه الانفراد بالسلطة وحقوق وحريات الأفراد من فساد وتدهور ، ضرورة الأخذ بفكرة سن دستور يضمن الحريات العامة، الذي يقوم على أساس التوازن والتكافئ والمساواة بين الطبقات الاجتماعية الثلاث (الملكية ، الارستقراطية والعامة) يكون من القدرة على كبح جماح أي طبقة ومنعها من التفوق بسلطتها على الطبقات الأخرى بحيث تصبح الحرية للجميع لا حرية فرد أو جماعة أو حرية فوضى[٤٦] .

ب - شيشرون (١٠٦ – ٤٢ ق . م) :

أبرز المفكرين الذين تأثرت أفكارهم بالفكر الرواقي شيشرون[٤٧] . الذي عاصر المرحلتين اليونانية والرومانية ، لذا يعد من أفضل من جسد فلسفة الرومان القانونية والسياسية في كتاب الجمهورية[٤٨] . إذ عبر فيه عن أكمل تصور للمثل الرومانية عن الحكم والقانون العام الشامل[٤٩].

أكد شيشرون في كتابه على ضرورة تحقيق المساواة بين الأفراد إمام القانون لتحقيق الديمقراطية السياسية إذ قال :" أننا أذا لم نستطع تحقيق المساواة للمواطنين لأنها مستحيلة في الثروة والمواهب الفطرية فلا اقل من إن تكون الحقوق القانونية للمواطنين في الجمهورية الواحدة متساوية" (٥٠) .

ت - سنيكا(٥١) :

نادى سنيكا بمساواة الأفراد جميعاً وكونهم أخوة ينتمون إلى دولة واحدة هي الدولة العالمية(٥٢) . وبفضل أفكاره ذات الصبغة الدينية فأنه أكد على أن العالم الأكبر اقرب إلى أن يكون مجتمعاً من أن يكون دولة تسوده أواصر اجتماعية ودينية بدلاً من الروابط القانونية والسياسية(٥٣) .

٢ – نضال الشعوب الرومانية من أجل الديمقراطية :

سيطر الظلم والاستبداد على الإمبراطورية الرومانية ، التي أسست عام ٣٠ ق ٠ م ، لتاريخ طويل ، إذ أستطاع يوليوس قيصر ، بحصر السلطة وتركيزها بيده ، أن يحول دون انفراط عقد الإمبراطورية. وأدى ذلك إلى الحكم المطلق ، على الرغم من بقاء الأساليب الديمقراطية القديمة أسمياً بغير مسمى (٥٤).

فكان ذلك بمثابة مرحلة أولى من مراحل التطور الديمقراطي ، إذ قامت هذه الشعوب بسلسلة من الثورات طلبت من الطبقة الأرستقراطية الحاكمة إشراكهم في الحكم . بيد أن هذا المطلب تعذر تطبيقه تطبيقاً عملياً ، بالنظر لتراكم الثروة والسطوة عند الارستقراطيين وازدياد عدد المواطنين بحيث لا يتسنى لهم إبداء الرأي إلا عن طريق ممثلين عنهم في مجلس الشيوخ ، الذين سرعان ما أصبحوا ، زمرة تتوارث الحكم أو تشتريه بالمال أو الجاه(٥٥) .

وشن الأغنياء ، لزيادة ثروتهم ، حملات عسكرية للسيطرة على البلدان المجاورة وأضطر الرومانيون ، الذين كان أغلبهم يعمل في الزراعة ، على ترك مزارعهم للمشاركة بالحملات العسكرية التي شنها الجيش الروماني على الدول

والممالك المجاورة . الأمر الذي شغلهم عن تطوير شؤون الحكم لأنهم كانوا مستعدين للرد على أي عدوان يواجههم . ونتج عن ذلك هبوط ثروة على روما ، جعلها أعظم عاصمة في ذلك الوقت . وكانت هذه الثروة السبب في بدء انحدارها نحو الانحطاط فالزوال ، فالثروة التي تدفقت إليها من الخارج عودت أبناءها على التكاسل والترف، وكانت روما بتأثير ذلك دولة قمعية تعيش على كد العبيد وعرق جبين العمال الأجانب(٥٦) .

وأتباع هذه الطريقة جعلها في حالة حرب وتوسع دائم ، لأن التوقف يعني انهيار إمبراطوريتهم ، وسبب خسران التقدم الذي حققته الديمقراطية الرومانية . إذ أن الحروب والأزمات الداخلية وتشابك المصالح الاقتصادية أدى إلى قيام طبقة من الحكام ، كما عمل على انهيار الزراعة والصناعة واستيراد العبيد من البلدان الخاضعة لهم للعمل في مزارعهم ومعاملهم . وأصبحوا سلاحاً بيد الساسة ذوي المصالح والمطامح . فالديمقراطية لم تكن ممكنة التطبيق لانعدام الوسائل المساعدة ، كانتشار التعليم بين عامة الشعب(٥٧) .

يذكر أن الإمبراطورية الرومانية لم تنهض ، على الأقل في أطوار نشوئها الأولى ، وفق خطة واعية مدروسة . وإنما نشأت بالتدريج وتطور اتساعها نزولاً عند الحاجة إلى توطيد الأمن حيثما افتتحت لتجارتها سوقاً جديدة (٥٨).

واتحدت الفلسفة الرواقية مع الديانة المسيحية ، التي أكدت بأن الناس جميعاً سواسية في نظر الله كما جاء في رسالة القديس بولس إلى أهالي غلاطية . ونشأت نظرية جديدة في حقوق الإنسان ، تلك النظرية التي لو طبقت في حينها لدفعت بالبشرية إلى الديمقراطية خطوات(٥٩) .

كانت الدعوة إلى المساواة ، التي جاءت بها الديانة المسيحية ، هي دعوة روحية أخلاقية أكثر منها دعوة سياسية اجتماعية . لذا ما أن امتزج الدين بالسلطة الدنيوية ، وأصبحت الديانة المسيحية في عام ٣١٢ م هي الديانة الرسمية لروما حتى اندثرت حياة المساواة التي عاش المسيحيون الأوائل تحت ظلها وزالت الدعوة

إلى العدالة وشيوع الملكية التي طبقوها عندما كانوا فئة مضطهدة . فوضع رجال الكنيسة أيديهم بأيدي الطغاة المستبدين ، وأخذوا يدعون إلى إطاعة ولي الأمر بغض النظر عن إعمالهم وسلوكهم تجاه المجتمع وتجاه الحق والعدالة . وصارت المسيحية تستعمل أداة للتقاليد القبلية البالية ودرعاً يحمي خلفه المستبدون والمحافظون على الامتيازات المغتصبة ، ولمنع الشعوب عن المطالبة بحقوقها المسلوبة . وهكذا انعكست الآية في الإمبراطورية الرومانية ، فاختفت سياسة التسامح ، وحلت محلها سياسة العنف والظلم(٦٠) .

واتجهت سياسة الدولة الرومانية إلى تقوية الدين من جهة وذلك لربط المواطنين برباط وثيق يشتد بهم أزر الدولة لتعزيز نفوذ السلطة المركزية وجعلها مهيمنة ومسيطرة على إرادات الأفراد من جهة ثانية . ومقاومة الآراء الحرة والأفكار الجديدة (سياسية وفلسفية) من جهة ثالثة ، فقد قاوم الحكام في روما قاوموا الفلسفة اليونانية وحظروا دراستها في بلادهم(٦١) .

وشهد العهد الإمبراطوري استتباب امني نتيجة سيادة القانون الروماني على مفاصل الحياة كافة . وكان هذا القانون أعظم مآثر للرومان ، بيد انه لم يخرج عن ما توقف عنده الإغريق بشأن مبادئ الديمقراطية وحقوق الإنسان . إذ بقيت هذه المبادئ والحقوق دون ضمانة ضد تدخل الدولة . فالدولة عند الإغريق وظلت في عهد الرومان ، أعلى سيادة من الفرد . فكان من نتائج ذلك أن أصبح الإمبراطور الممثل الأوحد لإرادة الشعب . وبذلك انتزعت الدولة لنفسها كل سلطان ، ولم تترك للمواطن أي شيء(٦٢) .

وكانت الإمبراطورية الرومانية مأثرة كبرى ، لكنها منذ البداية كانت سائرة في طريق الزوال . ذلك أنها كانت متشعبة ومترامية الأطراف وإتباعها أساليب في الإدارة والحكم غير ديمقراطية لمجابهة مشاكل المجتمع بشكل صحيح . وإجبار الحكام الرومان ، من أجل الأنفاق على الجيش الكبير للمحافظة على الأمن ، رعاياهم على زيادة الضرائب وجبايتها عيناً(٦٣) .

وإمام هكذا ظروف ، لابد أن تميل المقاطعات الرومانية إلى المطالبة بالاستقلال الذاتي أو باللامركزية وتكاثر انضمام أبناء الشعوب الخاضعة للإمبراطورية في صفوف الجيش بسبب حرمان العبيد من ذلك . إضافة إلى انتقال القبائل الجرمانية إلى الأراضي الشاسعة الخاوية ، التي هجرها سكانها للعمل في الجيش ، لاحتلالها والاستيطان فيها . والواقع فأن الإمبراطورية الرومانية الغربية لم تسقط بيد القبائل الجرمانية ، بل أنما انهارت وتفسخت من الداخل قبل أن تصل إليها يد هؤلاء[٦٤] .

وأن أخفاق الديمقراطية في مماشاة حاجات المجتمع القديم ، عائد أكثر ما يكون إلى عجز الحضارات القديمة عن تعليم شعوبها كيفية القيام بما تقتضيه الديمقراطية من مسؤوليات . وليس عجزها هذا إلا نتيجة قضائها المتعمد على الديمقراطية والعلم . فكيف يمكن للنظام الديمقراطي أن يبقى إذا لم يتمكن من تهيئة أسباب بقائه ، كتطور التعليم[٦٥] .

المبحث الثالث

انتكاس الفكر الديمقراطي في العصر الوسيط

فقد الناس إيمانهم بروما بعد سقوطها ، وراح بعضهم يعزون أسباب هذا السقوط إلى الديانة المسيحية . ولم تكن البيئة صالحة في عصر الوسيط لتطبيق مبادئ الديمقراطية . فكان الخمود الفكري مسيطراً على العقول وسيطر المستبدين على الشعوب ومن أهم مظاهر الحياة في العصر الوسيط هو نظام الإقطاع حيث كانت المجتمعات الأوروبية مقسمة إلى ثلاثة طبقات ، طبقة النبلاء ، وطبقة الاكليروس ، وطبقة العوام والأقنان . وكانت الطبقتان الأوليان حائزتين على الأرض وعلى الامتيازات . إما الطبقة الثالثة فقد كانت معدمه مهانة[٦٦] .

وظهرت بعض الشخصيات الدينية التي رغبت في فرض سيطرة الكنيسة على مقاليد الأمور الدينية والدنيوية ، ومنهم القديس أوغسطين الذي ألف كتاب اسمه

مدينة الله أعلن فيه إن المدينة الخالدة ليست روما بل الكنيسة المسيحية القائمة على صخرة الإيمان التي لا تتزعزع إلى الأبد [٦٧] .

وأصبح كتاب القديس أوغسطين هذا ، دليل العصر الوسيط . فأعتبر الإمبراطورية الحق هي الكنيسة ، وعد مهمة الإنسان على الأرض تنحصر في الاستعداد للتمتع بنعم الحياة الأبدية . وهكذا بلغت الحياة في العصر الوسيط ، سواء بالنظر أم بالفعل ، درجة من الكمال لم يشهد لها الإنسان مثيلاً من قبل أو من بعد ، إذ كان لكل شيء في الحياة مكانه المناسب في المخطط الإلهي .

وسادت الفلسفة المدرسية Scholasticism خلال القرنين الثاني عشر والرابع عشر ، التي ترى إن الإنسان يجب إن يكون مقوداً بعقله للبحث عن الحقائق الطبيعية وبإيمانه فيما يتعلق بالأمور الدينية التي تدور حول حقائق ما وراء الطبيعة وان شعارهم هو الفلسفة هي وليدة علم اللاهوت والعقل هو أساس الإيمان [٦٨] .

وكان الفلاسفة المدرسيون وعلى رأسهم توماس الاكويني Thomas Aquinas (١٢٢٥ – ١٢٧٤) يرون إن الإنسان كائن اجتماعي بحكم النظام الطبيعي وانه من طبيعته مسوق للحياة الاجتماعية حيث يتمكن بواسطتها من الحصول على غاياته التي لا يمكنه الحصول عليها وهو منفرد . وبما إن الناس يختلفون في أرائهم ورغباتهم ونزواتهم فأنهم بحاجة إلى حكومة تؤلف بينهم وتجمع شملهم وتوحد أهدافهم ومراميهم[٦٩] .

ويرى الاكويني إن الكنيسة ممثلة لإرادة الله هي أسمى مرتبة من الدولة لذلك يؤكد على إن يكون رئيس الدولة مطيعاً لرئيس الكنيسة ، وان على الإفراد إن يطيعوا رئيس الدولة لان سلطته مستمدة من الكنيسة[٧٠] . يذكر أن الفلسفة المدرسية تعتبر القوانين التي يصدرها الحكام والتي لا توافق القانون الطبيعي بأنها غير شرعية . ويجب إن تكون للكنيسة الكلمة الأخيرة[٧١] .

وظهرت ، رغم ذلك ، الفكرة القائلة أن الدولة هي سلطة دنيوية ، التي نادت بأهمية الفرد وبالسيادة الشعبية . وظهرت في كتابات مارسيليو Marsilio Paduao (١٢٧٠ – ١٣٥٠) دعوة الشعب بالسيطرة على السلطة التشريعية لأنه له السيادة الحقيقية عليها ، بينما وصف الحكام المدنيون والدينيون بأنهم أدوات تنفيذية للإرادة الشعبية[٧٢] .

وكانت أهم آراء مارسيليو فكرته عن القانون كإرادة الشعب ، فالقانون في نظره، يجب إن يطاع لأنه يعبر عن الحاجة العامة المشتركة للمجتمع، وان الحكومة التنفيذية تعتبر شرعية ما دامت تستهدف المصلحة العامة وتتفق مع الإرادة الشعبية العامة[٧٣].

وظهر وايكلف Wycliffe من أهم الداعين إلى المبادئ الديمقراطية الحقيقية في العصر الوسيط ، الذي أكد على سيادة الشعب. وأيد حق الجمهور في مقاومة الحكام الفاسدين[٧٤] . وأيد مفكرين آخرين هذه الفكرة ومنهم وليام اوكام William Ockam الذي أعتبر الفرد هو الحقيقة الأساسية للمجتمع . وإذ خرجت الدولة على أرادة الأفراد فأنها غير شرعية[٧٥] .

وأراد بعض الباباوات أن توحد السلطتين الدينية والدنيوية ، وبما أن الكنيسة مقتنعة بان على الإنسان في الأرض إن يطيع السلطة الدنيوية ، لذا استعاضت عن فكرة إلوهية الإمبراطور بفكرة الحق الإلهي في الحكم . واعتبر القديس أوغسطين السلطة القائمة معطاة من الله ، فمن يعصاها فانه يعصي أوامر الله[٧٦] .

وأتيحت للكنيسة أن تقبض بيد من حديد على رقاب رعاياها والقبائل الجرمانية التي احتلت روما وتهيئ لهم أسباب الصيرورة مواطنين في العالم الجديد في الدنيا والخلد في الحياة الآخرة . فكان على رأس الكنيسة حبر أعظم لا تعلو فوق كلمته كلمة في الشؤون الدنيوية والدينية معاً ، معتمداً على ما يسمى بهبة قسطنطين . إلا أن سلطة البابا هذه لم تسلم من تحديات بعض الملوك ، فإذا بالنزاع يستمر طيلة العصر الوسيط [٧٧] .

ولقد رأت الكنيسة المسيحية أن تنسخ على منوال الإمبراطورية الرومانية في دعم الدين بالدولة . وكان الأمر طبيعياً ، إذ اعتبرت نفسها وريثة تلك الإمبراطورية ، كما وجدت في توحيد السلطتين الدينية والدنيوية سياسة درج عليها الحكام ورضت بها الناس . على أن التشديد في الإمبراطورية الرومانية المقدسة ، التي تشمل أراضي المانيا وإيطاليا ، لم يكن على الدولة بل على الدين . ولهذا أهميته الكبرى إذ أن الخلاص في المسيحية شأن شخصي . وأن الإنسان لم يوجد لأجل الدولة ، بل الدولة وجدت لأجل الفرد . ويعد هذا المبدأ بداية النظام الديمقراطي الصحيح(٧٨) .

ووقف البابوات بوجه التطور ، فالفردية التي انطوت عليها المسيحية والديمقراطية المبتورة التي نص عليها القانون الروماني اندمجتا في الفردية الجرمانية ثم دخلتا في نزاع عنيف مع الكنيسة . وبالإضافة إلى هذا النزاع كان هناك صراع بين الملوك والنبلاء الإقطاعيين . فعلى الرغم من أن النظام الإقطاعي يدين بسيادة القانون ، إلا انه لم يكن من التنظيم بحيث يحول دون سريان الفوضى . أما الملوك فقد كانوا يمثلون نمو الروح القومية التي أصبحت ضرورية لتنظيم المجتمع الأوروبي(٧٩) .

وهبت البابوية للدفاع عن سلطتها ضد خطر داهم قيام الدولة القومية في انكلترا وفرنسا وألمانيا . وحافظت على تحالفها مع خلفاء شارلمان (٧٧١ – ٨١٢ م) الذين كانوا يسيطرون على ألمانيا وايطاليا معاً ، وكان هؤلاء الخلفاء في صراع مع الأمراء الإقطاعيين . لكن قيام هؤلاء الأباطرة بضم ايطاليا إلى جانب ألمانيا مما افزع البابا وجعله ينقلب ضدهم ويتحالف مع الأمراء الإقطاعيين ، مما تسبب في إضعاف قوة البابوية ، في وقت تكاثرت أعداء البابوية وتعزز نفوذ الملوك(٨٠).

وتجدد الصراع بين الكنيسة والملوك القوميون الذين يتمتعون بنظرية الحق الإلهي بالإضافة إلى صراع بين الملوك والنبلاء والإقطاعيين ، ونتيجة لازدهار التجارة وانتعاش اقتصاديات المدن الأوروبية أدى بدوره إلى نمو الثقافة وارتقاء الحياة الاجتماعية ، فعادت الديمقراطية إلى الانطلاق من جديد(٨١) .

ومنح الملوك ، الطبقة الوسطى (البورجوازية)، امتيازات عديدة . منها ، تأسيس مجلس منتخب من بين التجار لتولي شؤون الإقطاعية وأدارتها إثناء غياب الإقطاعيين في الحروب الصليبية . ثم تكررت هذه العملية بعد نكث الإقطاعيين لعهودهم وبسبب حاجة الملوك للأموال جعلتهم يوافقون على إنشاء مجلس بلدي في المدينة وبناء برج حصين يعد مكاناً لاجتماع هذا المجلس وتحفظ به كافة الوثائق الخاصة به حتى يؤمن عليها من اغتصابها من قبل الإقطاعيين[٨٢] .

وجاءت رياح العصر الحديث في أواخر القرن الخامس عشر ، إذ انطلقت حركة النهضة الأوروبية من المدن الإيطالية تحمل مبادئ حرية الفكر والعبادة والاهتمام بالإنسان دون غيره . وطالبت بدراسة تراث اليونان والرومان القديم دراسة علمية . وظهرت حركة الإصلاح الديني تطالب بحرية العبادة والفكر .

.

الـخـاتـمـة

الديمقراطية كلمة يونانية مركبة تركيباً مزجياً من لفظين تعني حكم الشعب . وكثيراً ما تتم العودة بالديمقراطية ، بمعناها هذا إلى العهد الإغريقي ، على اعتبار أنها مثلت صيغة للحكم كانت قد عرفته أثينا بوجه خاص . وعليه فاليونانيون أول من استنبط نواة الديمقراطية . ووصفت الديمقراطية بأنها حكم الأغلبية في مجتمع تسوده المساواة إمام القانون ويسال فيه من يتولى المناصب السياسية عما يفعله .

وبلغ الفكر الديمقراطي ذروته في العهد الإغريقي حين سادت حرية العقيدة والفكر والكلام وتمكن التنوع من إيجاد فكر لم يبلغ العالم القديم مثيل له في القدرة والنبوغ . وبدأ انحطاط ذلك العهد ، عندما عمد أفلاطون وغيره إلى طعن الديمقراطية والعلم في الصميم ، وعندما حاول خلفاء الاسكندر الكبير أن يجمعوا بين النزعة الإغريقية نحو العقل والعلم والنزعة الصوفية . بيد إن ديمقراطية أثينا لم تسلم من التمييز الإنساني إذ منحت للرجال دون النساء وللمواطنين دون العبيد والأجانب ،

الذين يشكلون الأغلبية ، وازداد الأمر سوءاً بان جعلوها عن طريق القرعة لا عن طريق التصويت .

أما النظام الروماني المطلق فقد قضى على الحرية الفردية وأعاق موهبة الخلق والإبداع ، هذه الموهبة التي كان بوسعها أن تعطي العالم الروماني معرفة علمية تؤذن منذ ألفي سنة بطلوع نجم العصر الحديث . وإذا كانت أثينا قد سقطت لأنها لم تستطع تنظيم أقاليمها ، فأن روما سقطت لأنها استطاعت أن تنظم أقاليمها على حساب حريات الأفراد والتمتع بالحقوق الديمقراطية والتنوع الفكري الضروري للتقدم العلمي .

وحدث تغير ملموس في أواخر العهد الملكي في ظل ملوك الاتروسك الذين غيروا نظام الحكم مستبدلين مجلس الشيوخ والإشراف بمجلس ديمقراطي واحد . لكن هذا الوضع لم يعجب النبلاء فقاموا بالثورة ضد هؤلاء الملوك وأعلنوا النظام الجمهوري عام ٣١٢ ق.م ونتيجة سياسة التوسع الخارجي أعلنت النظام الإمبراطوري عام ٢٧٠ ق.م . إذ شهد هذا العهد تمايزا تطبيقياً كبيراً فيما بتعلق بالديمقراطية .

لم يخلو التاريخ الروماني من قيام بعض المصلحين أمثال جستنيان، الذي وضع دستوراً اقتبسه من النظام الديمقراطي اليوناني . وجسد شيشيرن فلسفة الرومان القانونية والسياسية في كتاب الجمهورية ، بالإضافة إلى غيرهما من المفكرين الرومان .

لم تكن البيئة في العصر الوسيط صالحة لتطبيق مبادئ الديمقراطية . فكان الخمود الفكري مسيطراً على العقول وسيطر المستبدين على الشعوب ومن أهم مظاهر الحياة في عصر الوسيط هو نظام الإقطاع حيث قسمت المجتمعات الأوروبية إلى ثلاثة طبقات .

وأرادت الكنيسة إن توحد السلطتين الدينية والدنيوية ، لذلك استعاضت عن فكرة إلوهية الإمبراطور بفكرة الحق الإلهي في الحكم . واعتبر القديس أوغسطين في

كتابه (مدينة الله) إن المدينة الخالدة ليست روما بل الكنيسة المسيحية . وعد مهمة الإنسان على الأرض تنحصر في الاستعداد للتمتع بنعم الحياة الأبدية ، والسلطة القائمة معطاة من الله . لذلك أتاحت تلك الظروف للكنيسة إن تقبض بيد من حديد على رقاب الناس . فأصبحت كلمة البابا لا تعلو فوق كلمته كلمة احد .

وظهر صراع بين الكنيسة والملوك القوميون ، بالإضافة إلى صراع بين الملوك والنبلاء الإقطاعيين ، إذ رغب الملوك في بسط نفوذهم على كافة أجزاء الدولة ، وبسبب الازدهار والتجارة وانتعاش اقتصاد المدن الأوروبية نمت الثقافة وارتقت الحياة الاجتماعية ، فعادت الديمقراطية إلى الانطلاق من جديد .

الهوامش :

(1) The Encyclop edia ameri cana , vol 19 , printed in the u.s.a , 1980 , p185 .

(2) Burdeau. G,. La democratie , paris , ed duseuil , 1978 , p9 .

(٣) **عبد الحميد متولي ، الوجيز في النظريات والانظمة السياسية ومبادئها الدستورية ، القاهرة ، دار المعارف بمصر ، ١٩٥٩ ، ص١٥٩ .**

(٤) **محمد عابد الجابري ، اشكالية الديمقراطية والمجتمع المدني في الوطن العربي ، مجلة المستقبل العربي ، العدد ، ١٦٧ ، ١٩٩٣ ، ص١٣ .**

(٥) **متولي ، المصدر السابق، ص١٥٩ .**

(٦) **محمد شفيق غربال ، الموسوعة العربية الميسرة ، القاهرة ، دار العلم ، ١٩٦٥ ، ص٨٣٧ .**

(٧) **جان توشار وآخرون ، تاريخ الفكر السياسي ، ترجمة علي مقلد ، ط٢ ، بيروت ، الدار العالمية للطباعة ، ١٩٨٣ ، ص١٧ ؛ عطا البكري ، الديمقراطية في تكوين ، بيروت ، دار العلم للملايين، ١٩٥٢ ، ص ٢٦ .**

(٨) صولون (٦٤٠ – ٥٥٨ ق.م) : ولد في عهد اكثر الحكام الدكتاتوريين شهرة هو دراكون حاكم اثينا والذي استولى على السلطة سنة ٦٢١ ق.م ، فتم وضع مجموعة قوانين جعلها تسري على العامة دون تفرقة او تمييز بينهم . كما كان يعاقب بالاعدام او النفي كل من يرتكب ابسط الجرائم وازاء هذه القسوة البالغة في الحكم الاراكوني فقد واجه معارضة شديدة اعجزته عن اتمام انظمته القانونية والاقتصادية ، والتي عمل صولون على اتمامها بعد تنحية دراكون والاستعانة بالطبقة الوسطى لمحاربة النبلاء والقضاء على نفوذهم ، انظر : المتيت ، المصدر السابق ، ص١٦ .

(٩) حداد ، المصدر السابق ، ص ٣٢.

(١٠) ديورانت ، قصة الحضارة ، ترجمة محمد بدران ، ط٣ ، القاهرة ، لجنة التاليف والترجمة ، ط٣ ، ١٩٦٨ ، م٢ ، ج١ ، ص٢١٥ .

(١١) الطاهر ، المصدر السابق، ص ١٠٩.

(١٢)جورج سباين ، تطور الفكر السياسي ، ترجمة علي إبراهيم السيد ، القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٧١ ، ج١ ، ص ١٠٠.

(١٣) أحمد جمال الظاهر ، دراسات في الفلسفة السياسية ، اربد ، مكتبة الكندي ، ١٩٨٨ ، ص١٠٨ .

(١٤) عبد الرحمن بدوي ، افلاطون ، القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٤٢ ، ص٢٢٩ ؛ ليو شتراوش وجوزيف كروسبي ، تاريخ الفلسفة السياسية ، ترجمة محمود سيد احمد ، القاهرة ، المجلس الاعلى للثقافة ، ٢٠٠٥ ، ج ١ ، ص ص ١٢٤ – ١٢٥ .

(١٥) ألسفسطائيون : هم جماعة من المعلمين جاءوا من اسيا الصغرى الى اثينا واصبحوا يعملون الشباب اليواني من خلال القائهم سلسلة من المحاضرات الخاصة في الخطابة مقابل اجور يتقاضوها من طلابهم . انظر : فؤاد كامل واخرون ، الموسوعة الفلسفية المختصرة ، بيروت ، دار العلم ، ١٩٨٣ ، ص٢٦٧ .

(١٦) بروتاجوراس (٤٨٠ – ٤١٠ ق.م) : سيفسطائي يوناني فر من اثينا كانت له أراء في العقد الاجتماعي ، بارساء دعائم الدولة على اساس روحي ، وذلك من خلال ارساله الاله (زيوس) لينشر مبادئ العدل والتنظيم وذلك لقصور مفاهيم الافراد وخبراتهم في فنون الادارة والسياسة ، والذي دفعهم الى الفرقة والهلاك . انظر : احمد عبد القادر ، تطور الفكر السياسي ، القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٧٠ ، ص٣٩ .

(١٧) البكري ، المصدر السابق ، ص ٢٨ .

(18) Lawrence wanlass , Gettell's history of Political thought , London , novella and co, 1956 , p 44 .

(١٩) إبراهيم حداد ، الديمقراطية عند العرب ، بيروت ، دار الثقافة ، ١٩٦٠، ص٤٠ .

(٢٠) ألمصدر نفسه ، ص٤٣ .

(٢١) محمد حامد الجمل ، أضواء على الديمقراطية العربية ، القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٦٠، ص٧٤-٧٥ .

(٢٢) الظاهر ، المصدر السابق ، ص ١١٠ .

(٢٣) ألكلبية : مصطلح مشتق من الكمة اليونانية Kunos والتي تعني الكلب وقد اطلق فلاسفة هذه المدرسة على انفسهم الكلبيين لادعائهم انهم حراس الفضيلة وانهم ينبذون الرذيلة من خلال انهم ينبحون عليه كما ينبح الكلب . انظر : يوسف كرم ، تاريخ الفلسفة اليونانية ، القاهرة ، لجنة التاليف والترجمة والنشر ، ١٩٥٨ ، ص٢١٢ .

(٢٤) ألجمل ، المصدر السابق ، ص٨٦ .

(٢٥) ألابيقورية : سميت بذلك نسبة الى مؤسسها ابيقور (٣٤٢ – ٢٧١ ق.م) الذي عمد الى اقامة مدرسة في حديقة داره في اثينا عام ٣٠٦ ق.م والتي اوصى بها وبداره قبل وفاته لتلاميذه الذين اطلق عليهم اصطلاح فلاسفة الحديقة . انظر : احمد امين وزكي نجيب محمود ، قصة الفلسفة اليونانية ، القاهرة ، لجنة التاليف والترجمة والنشر ، ١٩٥٨ ، ص٣٠٩ .

(٢٦) حداد ، المصدر السابق ، ص ٢٥ .

(٢٧) المصدر نفسه ، ص ١٠٨ ، دليل بيرنز ، الديمقراطية ، ترجمة محمد بدران ، القاهرة ، دون طبع ، ١٩٣٨ ، ص٩ ؛ البكري ، المصدر السابق ، ص ٢٧ ؛ حداد ، المصدر السابق ، ص ١٥ .

(٢٨) بعد ازدياد أعباء الحكام نشأت وظائف حكام آخرين ، مثل حاكم الإحصاء والمالية العامة والأسواق ، انظر : الجمل ، المصدر السابق ، ص ص ١٨ – ١٩ .

(٢٩) بركليس (٤٦١ – ٤٣١ ق.م) : زعيم اثيني من اسرة اكلمونيد العريقة ، عرف باتساع افقه وذكائه ، وكان هدفه ان يجعل اثينا زعيمة الحضارة الاغريقية وقوة سياسية كبرى وتحت زعامته شهدت اثينا ازهى عصورها وبلغت نظمها الديمقراطية اقصى مداها . انظر : محمد علي الداية ، الديمقراطية في أسمى مراتبها ، القاهرة ، د. ط. ، ١٩٥٩ ، ص١٩ .

(٣٠) ليلاند دوايت بولدوين ، الديمقراطية (امل الانسانية الاكبر) ، ترجمة يوسف الخال ، بيروت ، دار الثقافة ، ص٤٣ ؛ احمد عبد القادر ، الديمقراطية الاشتراكية ، بغداد ، دون طبع ، ١٩٧٦ ، ص٣٦ .

(٣١) ألجمل ، المصدر السابق ، ص٢٢ ؛ البكري ، المصدر السابق ،ص ٢٧ .

(٣٢) مجلس الخمسمائة : وهو يضم خمسمائة مواطن يمثلون قبائل أثينا العشر ، وتكون مدة العضوية فيه سنة واحدة فقط ، وهؤلاء الأعضاء يتولون الحكم بالتناوب لكثرة عددهم يحكم خمسون من كل قبيلة يشاركهم ممثل عن كل قبيلة من القبائل الأخرى لمدة عشرة أيام في السنة ، ويختار هؤلاء من بينهم عضواً لتولي رئاسة الحكم في أثينا لمدة يوم واحد لا يتكرر مدى الحياة . وكانت مهمة المجلس إعداد مشروعات القوانين لعرضها على جمعية الشعب ومراقبة السلطة القضائية فيما يتعلق بتطبيق القوانين ومن مهامه كذلك الاتصال بالهيئات الأجنبية وتنفيذ إحكام المحاكم ، وأحياناً يشكل محكمة من أعضاءه تصدر قرارات . ينظر : ابو اليزيد علي المتيت ، تطور الفكر السياسي ، القاهرة ، المكتبة الثقافية ، ١٩٧٠ ، ص١٨ .

(٣٣) البكري ، المصدر السابق ، ص٢٧ .

(٣٤) سباين ، المصدر السابق ، ص١٦ .

(٣٥) ألمتيت ، المصدر السابق ، ص١٩ .

(٣٦) متولي ، المصدر السابق ، ص٤١-٤٣ .

(٣٧) ألمتيت ، المصدر السابق ، ص٢٠ .

(٣٨) ألمصدر نفسه ، ص٢١ .

(٣٩) وهو نظام حكم الأقلية وقد استخدم الإغريق هذا التعبير Oligarchy . انظر : عبد العزيز سليمان نوار ومحمود جمال الدين ، التاريخ الأوروبي الحديث من عصر النهضة حتى الحرب العالمية الأولى ، م. النصر ، دار الفكر العربي ، ٢٠٠٥ ، ص٢٦ .

(٤٠) حداد ، المصدر السابق ، ص٢٣ .

(٤١) ألمصدر نفسه ، ص٢٤ .

(٤٢) ألمصدر نفسه ، ص ٩٩ .

(٤٣) بولدوين ، المصدر السابق ، ص ٩٦.

(٤٤) المصدر نفسه ، ص ٩٧ .

(٤٥) بوليب : (٢٠٣ – ١٢٠ ق.م) مؤرخ إغريقي ، وهو ابن عم الزعيم عصبة الاخية المدعو (ليكورتاس) . وقد نفي هو وعدد كبير من الاخيين الى روما عام ١٦٧ ق.م بعد انتصار روما في حربها مع مقدونيا . صادق أسرة شيبو وكتب عن رعايتها (تاريخ عالم البحر المتوسط في ٤٠ جزء والذي يعد من أعظم المؤلفات التاريخية في كل العصور . انظر غربال ، المصدر السابق ، ص٤٤٢ .

(٤٦) بولدوين ، المصدر السابق ، ص ٩٦.

(٤٧) ماركوس توليوس شيشرون (١٠٦ – ٤٣ ق.م) : خطيب وكاتب ومحامي سياسي روماني تلقى العلم على يد خير أساتذة عصره في روما وأثينا ، اشترك في الحياة العامة ، وتقلد مختلف مناصب الدولة ، ومن أشهر مؤلفاته كتابي الجمهورية والقوانين . كما ترك مؤلفات عديدة في الفلسفة فضلاً عن خطبه الكثيرة . انظر : غربال ، المصدر السابق ، ص١١٠٦ .

(٤٨) كتاب الجمهورية : كتب شيشرون في كتابه هذا فيما بين (٥٤ – ٥٢ ق.م) على هيئة حوار افتراض انه جرى عام ١٢٩ ق.م في حديقة شيبو ، الإغريقي الصغير ، وهو مقسم إلى ثلاثة أيام من الحوار ، في اليوم الأول يشير الى موضوع طبيعة الحكومة التي تمثل المصالح المشتركة . وفي اليوم الثاني يناقش أسس العدالة والتعليم . وفي اليوم الثالث تضمن أحلام شيبو . انظر : جون باول ، الفكر السياسي الغربي ، ترجمة محمد رشاد خميس ، القاهرة ، الهيئة المصرية للكتاب ، ١٩٨٥ ، ص٨٦ .

(٤٩) ألمصدر نفسه ، ص٨٧ .

(٥٠) باول ، المصدر السابق ، ص٨٦ .

(٥١) لوقيوس اناوس سنيكا (٤ ق.م – ٦٥ م) : شاعر وفيلسوف روماني . ولد في قرطبة (اسبانيا) اكتسب شهرة نتيجة أشرافه على تربية نيرون (٣٧ – ٦٨ م) الذي قربه إليه عندما أصبح إمبراطوراً ولكنه اتهم بالتأمر ضد سيده . انظر : غربال ، المصدر السابق ، ص١٠٢٥ .

(٥٢) سباين ، المصدر السابق ، ص٢٥٧ .

(٥٣) المصدر نفسه ، ص٢٥٨ .

(٥٤) المصدر نفسه ، ص ٥٦ .

(٥٥) الداية ، المصدر السابق ، ص ٢٢ .

(٥٦) المصدر نفسه ، ص ٥٥ .

(٥٧) المصدر نفسه ، ص ٥٤ .

(٥٨) بولدوين ، المصدر السابق ، ص ٥٣ .

(٥٩) البكري ، المصدر السابق ، ص ٢٩ .

(٦٠) المصدر نفسه ، ص ٣٠ .

(٦١) بولدوين ، المصدر السابق ، ص ٥٥ .

(٦٢) المصدر نفسه ، ص ٥٦ .

(٦٣) المصدر نفسه ، ص ٥٧ .

(٦٤) ادوار بنيش ، هذه هي الدبمقراطية ، ترجمة حسن صعب ، بيروت ، دار العلم للملايين ، ١٩٤٧ ، ص ٩ .

(٦٥) المصدر نفسه ، ص ١٠ .

(٦٦) البكري ، المصدر السابق ، ص ٣٢ .

(٦٧) بولدوين ، المصدر السابق ، ص ٦٢ .

(٦٨) ألبكري ، المصدر السابق ، ص٣٢ .

(٦٩) المصدر نفسه ، ص ٣٣ .

(٧٠) بنيش ، المصدر السابق ، ص ١١ .

(٧١) ألبكري ، المصدر السابق ، ص٣٣ .

(٧٢) المصدر نفسه ، ص ٣٤ .

(٧٣) ألمصدر نفسه ، ص٣٥ ،

(٧٤) الجمل ، المصدر السابق ، ٤١

(٧٥) المصدر نفسه ، ص ٤٢ .

(٧٦) أجاك ماريتان ، الفرد والدولة ، ترجمة عبد الله الامين ، بيروت ، مكتبة الحياة ، ١٩٦٢ ، ص١٢٩ .

(٧٧) بولدوين ، المصدر السابق ، ص٦١ .

(٧٨) بيرنز ، المصدر السابق ، ص ١٠ .

(٧٩) المصدر نفسه ، ص٨٦ .

(٨٠) بولدوين ، المصدر السابق ، ص٦٤ .

(٨١) المصدر نفسه ، ص ٥٨ .

(٨٢) ألجمل ، المصدر السابق ، ص٤٣ .

ملخص البحث باللغة العربية :

جذور الفكر الديمقراطي الأوروبي :

الديمقراطية كلمة يونانية مركبة تركيباً مزجياً من لفظين تعني حكم الشعب . وكثيراً ما تتم العودة بالديمقراطية ، بمعناها هذا إلى العهد الإغريقي ، على اعتبار أنها مثلت صيغة للحكم كانت قد عرفته أثينا بوجه خاص . وبلغ الفكر الديمقراطي ذروته حين سادت حرية العقيدة والفكر والكلام ، بيد إن ديمقراطية أثينا لم تسلم من التمييز الإنساني إذ منحت للرجال دون النساء وللمواطنين دون العبيد والأجانب ، وازداد الأمر سوءاً بان جعلوها عن طريق القرعة لا عن طريق التصويت .

أما النظام الروماني فقد قضى على الحرية الفردية وأعاق موهبة الخلق والإبداع . وحدث تغير ملموس في أواخر العهد الملكي ، تم تغيير نظام الحكم الذي يستند إلى مجلسي الشيوخ والإشراف بمجلس ديمقراطي واحد . لكن هذا الوضع لم يعجب النبلاء فقاموا بالثورة ضد هؤلاء الملوك وأعلنوا النظام الجمهوري ونتيجة سياسة التوسع الخارجي أعلنت النظام الإمبراطوري ، الذي شهد تمايزا تطبيقياً كبيراً فيما يتعلق بالديمقراطية .

لم يخلو التاريخ الروماني من قيام بعض المصلحين أمثال جستنيان، الذي وضع دستور اقتبسه من النظام الديمقراطي اليوناني . وجسد شيشيرن فلسفة الرومان القانونية والسياسية في كتاب الجمهورية ، بالإضافة إلى غيرهما من المفكرين الرومان .

لم تكن البيئة في العصر الوسيط صالحة لتطبيق مبادئ الديمقراطية . فكان الخمود الفكري مسيطراً على العقول وسيطر المستبدين على الشعوب ومن أهم مظاهر الحياة في عصر الوسيط هو نظام الإقطاع . وأرادت الكنيسة إن توحد السلطتين الدينية والدنيوية ، مما جعلها تقبض بيد من حديد على رقاب الناس . فأصبحت كلمة البابا لا تعلو فوق كلمته كلمة احد .

وظهر صراع بين الكنيسة والملوك القوميون ، إذ رغب الملوك في بسط نفوذهم على كافة أجزاء الدولة ، فعادت الديمقراطية إلى الانطلاق من جديد .

Hasan Zghair Huzaim (Roots of European Democratic thouqht) :

Democracy is a latin ward Consists of a double Structure of two expressions mean :" Judge of People " . Many times have been Come back to its latin origin , on the basis that it represented a form for judge Which Greece in purticular has already Known .

Democratic thouqht got its top When freedom of thouqht , speech and belief has been dominated ; althouqh Greece didn,t get off human distinquish m and un fortunalty , they made it by lot not by Vote .

For the Greek System , it destroyed the Personal freedom and obstructed the talent of invent and Grcution and made atangible change at the end of royalty Period . The form of judye has been chunged Which Was depending on Senator and supervising Councils , and became only one democratic Council.

This Statement has not been admired by the hobbles So they made arevolution against Thosc Princesses and declared the republic discipline , and the result of the Policy of exterior extention , the empire discipline Which Witnessed ahuge distinguish in relate to democracy .

The Roman history didn,t be empty of Some reformers like Jastnyun Who Put a consititupion and he quatedit from latin democratic discipline . Shyshirin incorporated the philosophy of law and Politic Romans in a republic book ; inaddition to others of thinking Romans .

The environment in the middle Period Was not good to apply the democratic Principles . Thus the thinking retreat demonstrated on the minds and the oppresses ruled the Peoples .

The church at this time Wanted to unite the two religious and Worldly authorities . Thus the authority of the head of church has been demonstrated .

By this , astruggle between the church and national Kings , because the Kings Wanted to demonstrate on all the Parts of uation , thus democracy has been established again .